الباب الثاني والثلاثون

(ذكر الباشاوات من عام ١٠٣٩هـ / ١٠٤٢هـ)

فى هذا المحرم أعنى فاتح التاسع والثلاثين والألف شُرع فى بناء جامع الهناء ، وفُرغ منها فى شهر الصفر ، ثم جهز محلة إلى رند - وسار إليها فيها بنفسه ـ فلما وصل بلد كوكيا نزل بها بالمحلة ، وبعث مراسيله إلى عند إسكيا داود بن إسكيا محمد بان ابن الأمير إسكيا داود بالصلح ، وخطب منه ابنته ، وبعث له معهم كثيراً من الهدايا فقبل ذلك الصلح ، وزوَّجه واحدة من بنات أقاربه وجعل مراسيله معهم ساعة انقلابهم إليه ، فبلغوا له رسالته من قبول ذلك الصلح والزواج ، وفتح طريق الخير والمحبة والأمانة بينهما ما دام هو فى التباشات .

ثم رجع إلى تنبكت فبعث قاربًا للقاء زوجته ، فجاءت إلى تنبكت كما أراد ، ثم عزم على سفر الحج كما زعم ، فأخذ يصلح من شأنه ، وعين من الرماة ما يمشون معه من جيش تنبكت . وبعث لأهل كاغ أنْ يصرفوا له عددًا معيناً وهو خمسون من الرماة عندهم يمشون معه ، زيادة على ما عين من أهل تنبكت فأبوْا وامتنعوا ، فكان ذلك غضباً مُدخرًا عنده عليهم ، فهناه القاضى سيد أحمد ، وفقهاء البلد على تلك الغربة ، ووعظوه ، وذكروه فى جامع سنكرى فى اجتماعهم هنالك معهم بما عسى أنْ يحل به عزمه على ذلك السفر ، فصمم وأبى .

وفى رابع عشر من شهر الصفر فى العام الحادى والأربعين والألف توادع مع الناس ومع الجيش واستناب أخاه القائد محمد العرب عليهم ومشى على طريق توات فرافق مع السيد مبارك التقى الزاهد سيد أحمد بن عبد العزيز الجرارى ، والفقيه سيد محمد بن العلامة الفقيه أحمد بابا .

واستهل عليهم شهر الربيع الأول فى بلد أروان ، فلما وصلوا توات لحقهم هنالك الفلالى بن عيسى الرحمانى البربوشى وأصحابه ، فطاحوا عليهم ليلاً أرادوا قتله ، فهرب إلى السيدين فدخل عليهما فسطاطهما واستجارهما فتركوا نفسه فى حرمتهما ، ولكن صدوه عن الحج بعدما قتلوا مَنْ قتلوا من أصحابه . وردوهم إلى تنبكت وأعطاهم مالاً كثيرًا فى استنقاذ مهجته ، فمضتْ الرفقة مع السيدين للحج .

ولما وصل تنبكت فى شهر رجب فى العام المذكور وجَّه خديمه محمد بن مؤمن السابعى على حله إلى جنى برسالته ، ووجَّه أخاه القائد محمد العرب إلى أهل كاغ ليكون قائدًا عليهم ، وأراد أنْ ينتقم منهم من أجل ذلك الغضب الذى هو مُدخر عنده لهم فى امتناعهم بالخمسين الرماة .

فلما وصلهم شرع فى الانتقام قاموا عليه وقبضوه وكبّلوه ، وأكلوا ماله ، وعزموا على قتله ، فاستجار بالشيوخ الكبار منهم فعفوا عن قتله ، فلما بلغه الخبر بالشماتة عاملوا أخاه به ، وجّه إليهم نفسه يريد قتالهم ، ولكن لم يظهره لأهل تنبكت .

خرج كأنه يريد الحرث فى ذلك الطريق فى شهر ذى القعدة الحرام فى العام المذكور ، فجاز على حاله فلحقه من لحقه من الجيش ، فلما سمع ذلك الجيش الذى بحاضرة جنى صرفوا مرسولين لأهل كاغ بالبر واحدًا بعد ليكونوا معهم على نية واحدة ، وكلمة واحدة فى مخالفته ، فقبلوا ذلك واتفقوا عليه .

فلما بلغهم عاجلوه بالقتال وهزموه طرفة عين فهرب هو وأصحابه ، وأخذوا قارب خزانته وفيها جاريته فحزن عليها حزنًا شديدًا ، وقبضوا أيضًا إسكيا محمد سكن فكبّروه ، وعظموه ، وراموا منه أنْ يسكن عندهم ليتبركوا به ، ثم إنه شفع فى أخيه القائد محمد العرب المذكور فشفعوه وتركوه فى حرمته ، فأصلح بين الباشا على وبينهم ، فردوا الجارية المذكورة .

فلما وصل تنبكت جهز المحلة للرجوع إليهم استيصالاً لهم ، فصرف سبعمائة مثقال ذهباً للقائد ملوك فى جنى أنْ يقيمها للجيش الذين هنالك عطاء وهدية يريد بذلك تطييبًا لقلوبهم معه ، ثم صرف مرسولاً ثانياً لجنى فى إثر الأول عند خديمه محمد بن مومن السباعى .

وكتب له أنْ يقبض سلتى ورى محمد قلى ، ويأكل جميع ما احتوت عليه داره ، وبيع عياله وأولاده . ويبعثه له فى تنبكت مُكبلاً فى الحديد يريد قتله من أجل ماله الذى أمسكه عنه عند عزمته على سفر الحج ، فانتظره حتى طال به الانتظار ، فمضى ولم يصرفه .

الحاصل سبق المرسول الثانى المرسول الأول ، ووصل مدينة جنى ضحوة الاثنين ثانى يوم النحر ، فلما قرأ الكتاب وهو عند القائد ساعتئذ فى الميتود صرف لسلتى المذكور ، وهو فى دار جنكى على عادتهم فى ملعب أيام العيد ، فجاء وقبضه ، وسجنه فى القصبة مُكبلاً بالحديد .

فأحضرنى أنا شاهد آخر لإحصاء ما فى داره يومئذ ، فأحصينا ما فيها فى الزمام سوى المماليك ، وأمرنا أنْ نرجع غدًا لإحصائهم ، فبعد ما أحصيناهم فى الغد أمرنا أن نمضى معه إلى السجن ، ليقر لنا أن ذلك نهاية ماله ، فدخلنا عليه فى السجن يوم الثلاثاء ، وألفيناه فى بئس الحال ، فقرأت عليه الزمام فأقر أنه نهاية ماله قالوا الشهادة فيها .

ثم وصل الرسول الأول نهار الخميس الرابع عشر من ذى الحجة الحرام المُكمل للعام الحادى والأربعين والألف ، فلما قرأوا الكتاب ورأوا الصور المهداة تحققوا بلا شك ولا ريب ، أنه ناله الضعف والوهن ، ووجدهم قد فرغوا من قبح المخالفة وإبرامها .

فقاموا ساعتئذ ، وقبضوا محمد ولد مؤمن وسجنوه فى السجن الذى فيه سلتى ورى المذكور ، وأخرجوا الحديد الذى فى رجليه ، وردوه فى رجلى محمد بن مؤمن ، فأحضرنى القائد [1] وجميع كبار الجيش ساعتئذ فى داره مع شاهد آخر لإحصاء ما فيها من المال ، فأحصاهم فى الزمام ما خلا المماليك والجوارى ، وأمرونا أنْ نرجع غدًا لإحصائهم .

فبعدما أحصاهم فى الغد يوم الجمعة الخامس عشر من الشهر المذكور ، أمرونا أنْ نمضى إلى السجن ونسأله على ماله ، فوجدناه على الحال الذى وجدنا سلتى ورى عليه يوم الثلاثاء ، فسبحان الملك القادر الذى يفعل فى مُلكه ما يشاء ، المنفَس عن المكروبين فى أسرع من لمحة الطرف .

وتركوه فى السجن كذلك ، ثم اتفقوا على قتله ، فقتل ليلة عاشوراء من المحرم الحرام فاتح الثانى والأربعين والألف .

ولنرجع إلى تمام قصة الباشا على بن عبد القادر مع أهل كاغ ، ثم إنهم أطلقوا إسكيا محمد بنكن ، فرجع إلى تنبكت ، فلما وصل ألقاه عازمًا على الرجوع إليهم بالجد والاجتهاد ، واستعد أنواعًا من آلات العذاب لهم .

وفى يوم الأحد ثانى المحرم المذكور أمر قواربه بالدفع من مرسى كبر ، فلما وصلوا قرية بور خالف عليه الجيش ليلة الاثنين ، وولوا على بن مبارك الماسى باشا ، ورجعوا للمرسى بالقوارب .

---

(١) كان السعدى بجوار عمله كإمام مسجد ، يقوم بوظيفة شاهد القاضى ، وهو أشبه بعمل موثق العقود بالشهر العقارى حالياً ، أى : يقوم بتوثيق العقود وحصر التركات .

وخرج هو صبيحة ذلك الاثنين يلتحق بهم بالبر ، وليس عنده الخبر لهذه المخالفة والعزلان فتوجّه نحوهم ، وفى الطريق سمع ذلك الخبر ، فكرَّ راجعاً لتنبكت ، فهرب عنه جميع أتباعه إلا القائد محمد بن مسعود المراكشي ، وهو من أهل الوفاء والعهد ، فبات ليلة الثلاثاء ، وفى غده أمر القاضى سيد أحمد أن يمضى إليهم فى المرسى ليصلح بينهم وبينه .

فلما وصلهم عرض ذلك عليهم ووجدهم لا يزدادون إلا إدبارًا ونفورًا ، فرجع البلد ولم يطرقه ، بعث له منْ يخبره بما جرى وجاز هو إلى داره .

وفى صبيحة الأربعاء ارتحلوا من المرسى إلى البلد فخرج هو وقعد الفلالى بن عيسى البربوشى [1] وحلاته فى قرب البلد ، فطلب منه المعاونة على الهروب ، فبات عنده فى حلته ليلة الخميس ، ولم يقبل له الذى طلب فردّه للبلد ضحوة الخميس .

فجاء معه ودخل فى دار القاضى للشفاعة ، وبعث بذلك للباشا على بن مبارك ، فصرف إليه منْ يقبض منه جميع ما كان عليه من عدة السلطنة فأعطى الجميع ، وفى العشية آتاه جماعة من الرماة فأمر الباشا فقبضوه ، وكتفوه إلى القصبة وضرب عنقه فى الرومع القائد محمد بن يوسف مسعود .

وجرّوه برجله فى سكك المدينة إلى السوق وعلقوه هنالك ، ثم نزلوه ، وجهّزوه ، ودفنوه فى مقابر الجامع الكبير فى جوار ولىِّ الله تعالى سيدى أبى القاسم التواتى رحمه الله تعالى ، وذلك الخميس سادس يوم المحرم المذكور .

(١) بربوشى : نسبة إلى قبيلة البرابيش ، والتى تعيش فى منطقة الصحراء الكبرى وغرب إفريقية ، وهى قبيلة عربية .